شبكة العلائق التناصية في قصيدة ((عذابات ناشئة الليل)) للشاعر: علي الفزاني

د. حنان عياد زنين

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الأصابعة، جامعة غريان.

الملخص:

نعرض في هذا البحث ظاهرة التناص في شعر شاعر ليبي مكنته موهبته الشعرية وثقافته من الوصول الى العالمية، وأصبح من الشعراء الذين نالوا اهتماما كبيرا في الدراسات الحديثة، وقد تطرقت في هذه الدراسة إلى شعر الفزاني ومدى ارتباطه وتعالقه مع نصوص أخرى، سواء أكانت نصوص دينية أم أدبية، وقد ركزت على ثلاثة جوانب مهمة في هذه الدراسة والتي أشرت لها بالتفصيل في هذا البحث، وهي قصيدة ((عذابات ناشئة الليل)) للشاعر الليبي الفزاني والتي تبين من خلال عنوانها أنها تحمل تناص مع القرآن الكريم وفي بعض أبياتها تتجسد العديد من التناصات، والتي جميعها تبين لنا الشعور والمعاناة التي تعيشها الذات الكاتبة.

الكلمات المفتاحية: التناص الديني – التناص الأدبي ((الشعري والنثري)) – التناص مع الشخصيات.

Abstract

In this research I present the phenomenon of intertextuality in the poetry of Libyan poet whose poetic and cultural talent enabled him to get a high global rank, that he became one of those got great appreciation in modern studies .This study shed a light on AL-FAZANI poetry with extent and interrelation of other texts , whether they are religious or literary. I focused on three important aspects within this study, which I referred in details with the poem (The Torments of The Emerging nights) by the Libyan poet AL-FAZANI , which is clear from its title that carries an intertextuality with the HOLY QURAN in some of its verses which are embedded and show us the feelings and suffering of spectacular writer.

المقدمة:

يتميز الشعر الحديث بمميزات خاصة لا يزاحمها فيها أي فن آخر، فهو مستنبط أصلا من لغة القرآن الكريم، والتي تميزت عن سائر اللغات من خلال تراكيبها وصيغها، فمعظم الشعراء انكبوا في نتاجاتهم الشعرية على نصوص قرآنية فنجدهم يجسدون نصا قرآنيا في شعرهم، وذلك لتعزيز الدلالة وأيضا بيان تعلقهم بالنص القرآني الذي يكون له أكثر حضورا في الذات المتلقي وأيضا له قدر أكثر على التأثير.

في هذه الدراسة تطرقت إلى جانب مهم وهو التناص في الشعر الحديث واختصت الدراسة بشعر شاعر ليبي جسد معالم التناص في شعره معتمدا في ذلك على ثقافة دينية وأدبية أسهمت في إنتاج معالم نصه الشعري وافتتحت الدراسة بالنص الشعري للشاعر ثم تحليل النص وفق شبكة من التعالقات النصية ويليها قائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

أولاً : قصيدة عذابات ناشئة الليل

تزورين وناشئة الليل تمر على القلب كسيل الجحيم

يهد سدود احتماء السكينة ويحرق باللظىطوق السكون

كأن أظافر الصحو خناجر تلمع في ظلمات الهزيع

فأسمع خطى الحرف تزحف كسنابك العاديات ويشتد صراع ظنوني

تباركت ياحلمنا الأبدي لقد زحف الحرف مع الفقراء

وللنهر في الأرض طريق يسقي سنابل القمح والبذرة التي أورقت بالفتون

قدري أزلي المعارك منذ كنعان نصارع مد اليمين ومد الشمال

وتفاهات الطواطم التي تخرج كالخفافيش من توابيت القرون

يد تحمل سورة الفتح وتجوب البقاع وكف بها سيف الوليد و رمح صلاح. ..

أفاطم إن العروبة روح قصائدي وعلامة في جبيني

أفاطم بك ومعك جبت المسافات الطوال والطرق والكتب

والشوارع المفعمات برائحة الجوع والقهر

وجلست على ربوة العصر أخط على هذي السطور كل يقيني

أنا مذ سقط الغفاري حملت شفاهة الظمأى

أفتش في النفوس عن جرعة ماء فما وجدت إلا الاناء

به دم عربي النزيف من رأس ألف (حسين)

فتمردت على كل التزام وأي التزام ولم تزل

ذاكرة الصبا تردد ((هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فعبدون))

أنا لا حب لي سوى حفنة من تراب الخليج وزيتونة في الرباط

نسيت دلال النساء توغلت بعيداً

هما الشعر والثورة توأمان فياك ماحملت سفيني وعلى مرافئ المدن الموحشات أشد التروس

وأصرخ أنا عاري الأمس جئت أعري الطغاة وأزيح عن لغة الله طلاسم المرجفين

أعيذ بعض كنزها المكنون تسألني هذي الجميلة عن طعم الهوى

ويجذبني سحرها الفجري ويخفق شعرها الفاخم يداهم بالأنوثة عصمتي

عطرها في جنون أصادر في العمق كل انجذاب وأمد أشرعتي في خضم قضيتي ـ

أفاطم أبدا ام أرة عن غايتي تقصيني أفاطم مثلك تملكني الفكر أحمله عبء هموم ثقيل

ومن سار مثلنا في دهاليز تاريخه أصبح كالسجين أنا أرفض الفن مجوناً ولهواً وأرفض الشعر نفاقاً

ألا فليسقط الفن والحسن إن أصبحا في بلاط عصرنا للتزلف والمجون

ألا فليزحف الحرف على عفن الأراشيف وزيف التأويل وتغريب بذرة الثورة في دجى الحمأ المسنون

أنا البشر المطحون تحت سياط الروم والفرس وطريد فردوس قرطبة ـ

ولم تزل جراح المغول وهول حزيران تطاردني ياليتهم ماأوقفوا ضحى ((تشرين))

وقلت: حذاري من طوفان عصركم فظنوا بي السوء وأعلم فاطم أنهم صلبوا تاريخهم وماصلبوني أفمن يبني بيته من بلى العنكبوت كم يبني لأمته من صلادة الحرف والرفض بيوتاً وهمو الأنبياء يافاطم علموني

سأظل أوثر سورة الرفض على الصخب الرجعي وحين يهدأ هذا الضجيج أخط على السفوح الخضر سورة التكوين

أنا ابن هذا المد الذي يقلق الخائنين وزارع الصحو في عالم الصمت فإذا جلجلت قيثارتي غضباً فلا تسكتوني

أيريدون أن أمدح الخبث والقبح وأنا أحمل كفني مع الثائرين وأواجه من كل الفجاج المنون وإذا دمع الفقير أضحى مداداً فمن الحبر وبالقلم الثوري يصنع الرفض والفعل أفاطم لا تغضبي إن انكروني نحن أردنا الحقول ونحن أردنا البيوت ونحن أردنا الرغيف لكل امرئ في الوطن المغبون

أفاطم إن الطريق طويل وناشئة الليل تهد كياني فإذا سنة من الكرى سرقت يقظتي فاعذريني

فغداً سنعلن فوق المآذن والمداخن عرب نحن نعرف سر الخفافيش التي تكمن في الظلمات فلنا ألف عين

(الف ازني، هذه القصيدة لم تنشر بعد، هناك إشارات لها في كتاب الصورة الفنية في شعر علي الف ازني).

ثانياً : شبكة العلائق التناصية في قصيدة ((عذابات ناشئة الليل)):

أثبتت الدارسات النقدية الحديثة أن ((النص الأدبي لا ينشأ من فراغ، وإنما يظهر في عالم مليء بالنصوص الأخرى)). (حافظ، 1986، ص80) ، لذلك نجد التشابه قائماً بين أي نص نقرؤه وبين العديد من النصوص الأخرى السابقة عليه والمت ازمنة معه.

وهذا ما أثبتته الدراسات التي قدمتها كرستيفا وبارت وتلقاها البحاث العرب مثل محمد مفتاح وسعيد يقطين وعبد الملك مرتاض وغيرهم، إذ بلورت هذه الدراسات ما أشارت إليه الدراسات العربية النقدية القديمة ، التي درست فكرة السرقات الأدبية الشعرية والاقتباسات في سبيل بناء النص الأدبي ، وإنتاج دلالته حتى غدا التناص جدلية فاعلة بناءة ولازمة لبناء أي نص.

وحيث إن الكاتب لا يكتب إلا بعد الامتلاء _كما أخبرنا جاك لاكان _ لذلك فإن الناقد والقارئ لا يصعب عليه لمس واكتشاف خلفيات ثقافية تت اردف وتتآزر في بناء النص وتتعدد هذه الروافد فتشمل ت ارث هائل ديني وأدبي ((شعري ونثري))؛ لذلك كان على القارئ استخدام القراءة التناصية في ((تفكيك شفارت النصوص ومرجعيتها المباشرة أو المفترضة على الأقل انطلاقاً من القول بفكرة وجود تطور داخلي للأدب وأشكاله الفنية)). (توما، د - ت، ص20).

لقد عاش الشعر الحديث هذه الظاهرة ، ولنا في قصيدة ((عذابات ناشئة الليل)) للشاعر الليبي علي الف ازني أن نحاول الإمساك بشبكة العلاقات التناصية المحركة للدفقة الشعرية بهذه القصيدة، وبعد معاينة القصيدة تبين أن هناك ضفيرة شعرية تحرك القصيدة وتبني وتشكل قوامها، تتجلى هذه الضفيرة في أبعاد ثلاثة يمكن قراءتها كالآتي:

أولاً : التناص مع الدلالة النصية القرآنية:

((أنس الشعراء إلى اللغة القرآنية، وأصبحت تجري على ألسنتهم على أنها لغتهم الخاصة وهذا ارجع إلى مكوناتهم الثقافية التي كان القرآن الكريم مصدرها الأول ومنبعها الغزير وكان من مظاهر هذه الألفة كثرة المفردات القرآنية في لغة الشعر)). (شارد، 1987، ص 71).

إذ تسكن مفرداته وعبا ارته وجملة ثنايا القصائد وترد بشكل متواتر، فتغدو حاملة جمالية التأثير في المتلقي، وتسحب الأجواء القرآنية والدلالات المرافقة لها على القصائد الشعرية، فيتاح للشاعر بناء عالم خاص يكون فيه كرسول أو نبي يمارس فاعليته في العالم عبر الخطاب القرآني.

سلطة العنوان:

يطالعنا النص القرآني بكل ج ذبه وتأثيره في عنوان القصيدة، فيشكل نافذة تطل بنا عبر العالم القرآني إلى اكتشاف وجوه تعدد الدلالة وإضفاء جمالية شعرية على القصيدة، بحيث يكفل لها العنوان خصيصتي الجذب والتأثير معاً، فيكون العنوان نصاً موازياً كما قال جرار جينيت.

لقد وفق الشاعر في اختيار عنوان القصيدة ، بل كانت للعنوان سلطته الباذخة ((فناشئة الليل)) التي هي ساعات الليل تعد أشد ثباتاً من النهار وأثبت في القلب، هذا ما أخبرنا به النص القرآني في قوله تعالى ((إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيل)). (سورة المزمل، الآية 6)، فلقد اكتسبت العبارة القرآنية عبر استراتيجية التناص دلالة إيجابية أخبرتنا عن وجع الشاعر وآلامه ، فالوطء يوحي بالشدة ،وناشئة الليل تخبر عن طوله وبخاصة عندما ارتبطت عند الشاعر بسياق ((الزيارة)) وسيل الجحيم الذي أعطاه القرآن وصفه في أكثر من موضع وعبر الت اردف نجد الشاعر يؤزم وصف حالة عندما يقرن الليل بحرف الظى التي أخبرنا القرآن عنها هي الأخرى وعن شدتها فنجد

في هذه العبارة ارتباطا وثيقا بين الجحيم اللظى وناشئة الليل ، وكلها اكتسبت دلالات شعرية نابعة أساساً من دلالتها وتأثيرها في أصلها القرآني.

يبدو أن الشاعر يعاني حالة من الألم الصادر عن شكواه من جثوم الليل على صدره فقد جعل أيضاً عبر الدلالة القرآنية _ خطى الحروف تزحف كسنابك العاديات – وهو تشبيه قرآني يجعل للحروف صليلاً كحوافر الخيل فيقول:

كأن أظافر الصحو خناجر تلمع في ظلمات الهزيع فأسمع خطى الحرف تزحف كسنابك العاديات ويشتد ص ارع ظنوني

يستثمر الشاعر دلالة التصوير القرآني على الحياة والنمو فيقول:

تباركت ياحلمنا الأبدي لقد زحف الحرف مع الفقراء وللنهر في الأرض طريق يسقي سنابل القمح والبذرة التي أورقت بالفتون

فقدجعل للنهر دلالة يحمل معها ما يحمله الغيث النافع، فقد جعله يسقي سنابل القمح ، وبالنظر في كلمة سنابل يتجلى التناص مع قوله تعالى ((مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)). (سورة البقرة، الآية 261)، فقد جعل دلالة الت ازيد في الخير المتمثل في السنابل المروية إماءً إلى أصلها القرآني.

التفاعل ال نصي الخارجي مع النص القرآني:

يقول الشاعر:

يد تحمل سورة الفتح وتجوب البقاع وكف بها سيف الوليد ورمح صلاح ... أفاطم أن العروبة روح قصائدي وعلامة في جبيني يتخلى الشاعر هنا عن التصريح ويجنح إلى التلميح من خلال تعلق النص هنا بسورة الفتح فقد جعل الشاعر اليد التي يتحدث عنها حاملة ((سورة الفتح)) وسورة الفتح هنا فيها ما فيها من دلالات النصر وثواب الجهاد وغيرها من الأمور المتعلقة بالأمل والوعد الحق والنصر والجنة، ثم يعود الشاعر مرة أخرى للتصريح عبر آية كاملة من القرآن وهي قوله تعالى ((إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدو)). (سورة الأنبياء، الآية 92)، وفيها دلالة التجذر في العروبة والاتجاه نحو المعبود الواحد كما أنها توحي بالت ازم الشاعر وسواه بمعاني هذه الآية وخصوبتها وذلك من خلال ذاكرة الصبا إذ تظل محفورة فيها ولا تمح ى ولا يعفو عليها الدهر، ولقد خصت هذه الآية الأمة الإسلامية، وبالتناص مع قوله تعالى ((الحمأ المسنون)). (سورة الحجر، الآية 27)، يقول الشاعر:

ألا فليزحف الحرف على عفن الأرشيف وزيف التأويل وتغريب بذرة الثورة في دجى الحمأ المسنون فتتجلى معناها من خلال ربط الجملة بكلمة الدجى، فالحمأ هو الطين المتغير إلى السواد وإضافة الشاعر لصفة الدجى دلالة على ما يعانيه الواقع من ضغوط سياسية.

وعبر اللهجة الخطابية الثائرة يقول الشاعر:

أفمن يبني بيته من بلى العنكبوت كمن يبني لأمته من صلادة الحرف والرقص بيوتاً وهم الأنبياء يافاطم علموني

مستثمراً دلالات قوله تعالى ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)). (سورة العنكبوت، الآية 41)، مبرزاً المفارقة بين الأمة الآيلة إلى الخير والعمار وبين غيرها، إذ يتحقق عبر التشبيه القرآني مفارقة البناء للأمة ودوام التحريض من خلال الكلمة الخلاقة الفاعلة، ومن ذلك نخلص إلى القول بأن الشاعر أجاد استثمار الدلالات القرآنية في بعث رسالته التحريضية.

ثانياً : التناص مع الشعر القديم والحديث:

لقد سكنت قصيدة علي الف ازني أصوات شعراء كثيرين ينتمون إلى فت ارت زمنية متباعدة، وحيث إن ((الشاعر لا يقبل التراث كله ولا يرفضه كله وإنما تمثل بينه وبينه علاقة من التفاعل والتجاذب يصفى خلالها التراث من منظور العصر)). (اسماعيل، 1994، ص 30)، فإن القصيدة متشابهة في بعض مفرداتها وجملها وصورها مع نتاجات شعراء كثيرين منها هو قول الشاعر:

أفاطم ... وتكرارها في القصيدة يتناص مع قول الشاعر الجاهلي امرئ القيس في معلقته:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد ازمعت صرمي فأجملي. (عبدالحميد، 1998، ص 255).

ولكن فاطمة المناداة نداءاً مرخماً هنا عدت رم أَز أطلقه شعراء الجاهلية ورحل حاملاً صفات الجمال والمساعدة إغاثة المنادي بل لقد أصبحت رم أَز للأرض والقدس ، والشجر قابلة للتناول عبر كل سياق شعري .

لقد لعب التناص دوره الايجابي في هذه القصيدة فتجلى في أبعاد عديدة يمكن القول بأن الصورة الشعرية المتمثلة في قول الشاعر:

أنا البشر المطحون تحت سياط الروم والفرس وطريد فردوس قرطبة ولم تزل جراح المغول وهول حزيران تطاردني ياليتهم ماأوقفوا ضحى تشرين.

لقد تناول الشاعر ذكر أحداث الروم والفرس ومواقع حربية (طريد وفردوس وقرطبة) الأمر الذي يشئ ويخبر عن تناص في ذكر الأمكنة والأزمنة الحربية إضافة إلى تناص طبوغرافي (جغرافي)، في قرطبة فقد كان الشاعر في تناص قصيدته أسي أَر للشعر القديم والحديث على السواء، فها هو يقول:

وعلى م ارفئ المدن الموحشات أشد التروس

وأصرخ ... أنا عاري الأمس جئت أعري الطغاة

تتجلى استعارة صفة العراء للأمس مشيرة في إيماء إلى قول السياب:

وجاء الجسد العاري، خيالاً جاء محمولاً على موج من النار. (السياب، د – ت، ص 264)، وكلاهما يوحي بحالة من الحزن والتجرد من الآمال والقبول في ظل الآلام.

يلتقي علي الفازني مع بدر شاكر السياب في استيحاء صورة الليل وإبرازها بشكل د ارمي عند كلا الشاعرين، فالف ازني يشكو الليل شكوى بدر في قوله:

أنا وحدي يأكلني الليل (السياب، د – ت، ص 266)، وقوله:

ياليل لكم طال الدرب، تعب الركب (السياب، د – ت، ص 227).

وتظل شكوى الف ازني أشد وطأة وأكثر حدة؛ لأنه ذكر معها لوازم عديدة تمت الإشارة إليها فيما سبق، إلا أن شكوى بدر شاكر السياب متكررة تطالعنا في أكثر من موقع في قوله:

ذكرتك ياليعة والدجى ثلج وأمطار ... (السياب، د – ت، ص 229).

يظل تأثير شكوى الف ازني من الليل أقوى لأنه جعل مطلع القصيدة مكانا له وللسبب الآنف الذكر أيضاً.

ثالثا : التناص مع النماذج البشرية (الشخصيات التراثية):

تتجلى من خلال هذا النوع من التناص ((علاقة جدلية بين الشعر والتراث العربي)). (اسماعيل، 1994، ص 17)، ولكن مع هذا التوظيف وباستخدام هذه التقنية نجد الشاعر ((محتاجاً إلى خلق نوع من التوازن التاريخي بين الجذور الضاربة في أعماق الماضي والفروع ا لناهضة على سطح الحاضر)). (اسماعيل، 1994، ص 26)، ونجد الف ازني يميل إلى إحداث هذا التوازن عن طريق الاستشهاد غير المباشر بـ (كنعان) و (الطواطم) في قوله:

قدري أزلي المعارك منذ (كنعان) نصارع مد اليمين

ومد الشمال وتفاهات (الطواطم) التي تخرج كالخفافيش في توتبيت القرون

في صورة مقابلة بين الصفتين المنسوبتين للأمة (الطواطمية) إشارة إلى اتخاذهم رمز الحيوانات على أعلامهم، و(الكنعانية) إشارة إلى أصلهم الذي ينحدرون منه، مثبتاً عراقة الصفة) الكنعانية (وصارفاً صفة الطوطمية كنموذج بشري إلى قوى الاستعمار, غير أن الإنصاف يستدعي منا القول بأن إشارة الشاعر إلى هاتين الكلمتين لا يفقدها صلتها بالت ارث والمهاد التاريخي الناشئتين منه.

الخاتمة: وفي نهاية هذا البحث توصلت إلى العديد من النتائج أهمها:

يمكن القول بأن شبكة العلاقات التناصية في هذه القصيدة توحي بوعي الشاعر الحاضر أثناء بناء نصه، فقد اختار لبداية القصيدة وخاتمتها تناص قرآني مراعياً ما أسمته البلاغة العربية براعة الاستهلال وخير الخاتمة جاعلاً للتناص مع التراث الديني مكاناً لائقاً بقداسته.

جعل التناص مع التراث الأدبي ((شعراً ونثراً)) مبثوثاً بين ثنايا القصيدة.

كان مستوى القراءة لدى الشاعر يقوم على أساس الامتصاص الذي يقر بأهمية النص، والذي يتم على أساس التحول والحركة اللذين يسهمان في وجود الكتابة الجديدة.

أضاف التناص قيماً إيحائية وجمالية على القصيدة، بحيث جعل منها التفاتة تاريخية ملؤها الاحت ارم وفي الآن ذاته أعانت الشاعر على معالجة موضوع القصيدة في نبرة ثائرة مؤثرة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1. القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

المراجع:

1. إسماعيل، عز الدين (1994)، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، مكتبة الأكاديمية، ط 3.
2. توما، عزيز (د – ت)، مفهوم التناص في الخطاب النقدي المعاصر، مجلة الرافد، العدد 21.
3. السياب، بدر شاكر (د - ت)، الديوان، المجلد الأول، دار العودة، بيروت.
4. شارد، شلتاغ عبود (1987)، أثر القرآن الكريم في الشعر العربي الحديث، ط 1، دار عصمى.
5. حافظ، صبري (1986)، التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة عيون المقالات، الدار البيضاء، العدد الثاني.
6. عبدالحميد، محمد محيي الدين (1998)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المجلد الثالث، مكتبة دار التراث.
7. الفزاني، علي (1975)، المجموعة الكاملة، الشركة العامة للنشر والتوزيع، بنغازي.